الأندلسيون
هُزموا في إسطنبول قبل أن يُهزموا في غرناطة

لقد كان الأندلسيون في ذهابهم وإيابهم إلى السلطنة العثمانية، كالكرام على موائد اللئام، يبذلون التذلل والانكسار ويحكون مآسيهم، ولكن لا مجيب، وإذا كانت هناك من إجابة، فهي محدودة أو غير مؤثرة، فقد تناوب الأندلسيون على بلاط السلاطين العثمانيين، ولكن أحدًا منهم لم يتبنَّ القضية الأندلسية، لقد كانت العلاقات مع الأوروبيين هي الأولى وهي الأهم عند السلاطين.

> الشعر أبكى الأندلسيين ولم يُحرك العثمانيين

تقول الروايات التاريخية إن النشاط العسكري للسلطان بايزيد الثاني لدعم الأندلسيين لم يتعدَّ بضع سفن لإجلاء من يريد منهم إلى شمال إفريقيا؛ إذ لم تكن استراتيجية العثمانيين إبقاء العرب الأندلسيين في بلادهم الأندلس، وكأنهم لا يريدون مسلمين أوروبيين من أصلٍ عربي ينافسون وجودهم في أوروبا.

الباحثة إلهام يوسف في بحثها "النشاط العسكري في الدولة العثمانية في عهد السلطان بايزيد الثاني منذ العام 887 هـ 1482م تقول: "تسلّم السلطان بايزيد العديد من رسائل الاستنجاد من مسلمي الأندلس، فقد طلب ملك غرناطة أبو عبد الله الحادي عشر، المساعدة من الدولة العثمانية، وعرض السفراء الذين أرسلهم ملك غرناطة على السلطان بايزيد الثاني الوضع في الأندلس، ليرسل بايزيد الثاني دعمًا بسيطًا أسفر عن نجاح محدود – أُجلِيَت بموجبه السفن العثمانية 300 ألف عربي أندلسي إلى شمال إفريقيا، بينما كان الطلب الأندلسي مساعدتهم في البقاء في بلادهم، لا إجلاءهم".

وتقرّ إلهام يوسف في بحثها أن إخفاق الدولة العثمانية في تقديم المساعدة اللازمة لتحسين أوضاع المسلمين – في الأندلس – كان سببًا في تطوير البحرية العثمانية لأهداف عثمانية صرفة، ولعل القصيدة التي أرسلها الأندلسيون رفقة السفراء المبتعثين إليهم، تحكي الواقع المؤلم والآمال الكبيرة التي وضعها الأندلسيون في أكبر دولة إسلامية حينها، لعلها تنقذهم من مصير محتوم، لكنهم هُزموا في إسطنبول قبل أن تهزمهم جيوش الإسبان، قصيدة تحمل كل معاني الخضوع والتذلل لمن لا يستحقها، فقد خذلهم، وخذل ملايين المسلمين من ورائهم ومن بعدهم، وبسببه ضاعت الأندلس إلى الأبد.

تنقل المصادر رسالة الاستغاثة التي أرسلها الأندلسيون إلى السلطان بايزيد الثاني سنة (1501) بعد استيلاء الإسبان على المدن الأندلسية، ما نصه بعد سطر الافتتاح: "الحضرة العلمية، وصَل الله سعادتها وأعلى كلمتها ومهّد أقطارها وأعزّ أنصارها وأدَلّ عُداتها، حضرة مولانا وعُمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدين والدنيا، سلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام وناصر دين نبينا محمّد صلى الله عليه وسلم، محيي العدل ومنصف المظلوم ممن ظَلم، ملك العرب والعجم والترك والديلم، ظلّ الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرين وسلطان البحرين، حامي الذمار وقامع الكفار، مولانا وعُمدتنا مولانا بايزيد، لا زال ملكه موفور الأنصار، مخلد المآثر والآثار، مشهور المعالي والفخار، مستأنزًا من الحسنات بما يضاعف الله الأجر الجزيل في الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر في هذه الدار، ولا برحت عزماته العليّة مخدمة بفضائل الجهاد، مجردة من أعداء الدين من يأسها ما يروي صدور السمر والصفاح وألسنة السلاح، باذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخيار مفارقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد". ثم أرفقوها بقصيدة تشرح آمالهم ومآسيهم، نقلها جمال يحياوي، في كتاب سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني.

الرسالة محفوظة في المكتبة الوطنية بالجزائر.

سلام كريم دائم متجـــــــدد	أخص به مولاي خير خليفـــــة
سلام على مولاي ذي المجد والعلا	ومن ألبس الكفار ثوب المذلـــة
سلام على من وسّع الله ملكـــه	وأيّده بالنصر في كل وجهـــة
سلام على مولاي من دار ملكـــه	قسنطينة أكرم بها من مدينـــة
سلام على من زيّن الله ملكـــه	بجند وأتراك من أهل الرعايـــة
سلام عليكم شرف الله قدركـــم	وزادكم ملكًا على كل ملـــة
سلام على القاضي ومن كان مقلـه	من العلماء الأكرمين الأجلـــة
سلام على أهل الديانة والتقـــى	ومن كان ذا رأي من أهل المشورة
سلام عليكم من عبيد تخلفـــوا	بأندلس بالمغرب في أرض غربـــة
أحاط بهم بحر من الروم زاخـــر	وبحر عميق ذو ظلام ولُجـــة
سلام عليكم من عبيد أصابهـــم	مصاب عظيم يا لها من مصيبـــة
سلام عليكم من شيوخ تمزقـــت	شيوبهم بالنتف من بعد عـــزة
سلام عليكم من وجوه تكشفـــت	على جملة الأعلاج من بعد ستـرة
سلام عليكم من بنات عواتـــق	يسوقهن اللباط قهرًا لخلوة

وبعد ما سبق من التبجيل والخضوع، بدأوا بشرح مأساتهم:

وأُحرق ما كان لنا من مصاحـــف	وطُلطت بالزبل أو بالنحاســـة
وكل كتاب كان في أمر ديننـــا	ففي النار ألقوه بهزء وحقـــرة
ولم يتركوا فيها كتابًا لمسلـــم	ولا مصحفًا يُتلى به للقراءـــة
ومن صام أو صلى ويُعلّم حالـــه	ففي النار يُلقونه على كل حالـــة
ومن لم يجيء منا لموضع كفرهـــم	يُعاقبه اللباط شر العقوبـــة
ويلطم خديه ويأخذ مالـــه	ويجعله في السجن في سوء حالة
وفي رمضان يُفسدون صيامنـــا	بأكل وشرب مرة بعد مـــرة
وقد أمرونا أن نسب نبينـــا	ولا نذكرنه في رخاء وشـــدة
وقد سمعوا قومًا يُغنون باسمـــه	فأدركوهم منهم أليم المضـــرة
وعاقبهم حكامهم وولائهـــم	بضرب وتغريم وسجن وذلـــة
ومن جاءه الموت ولم يحضر الـــذي	يذكرهم، لم يدفنوه بحيلـــة
ويُترك في زبل طريحًا مجـــدلًا	كمثل حمار ميت أو بهيمـــة
إلى غير هذا من أمور كثيـــرة	قباح وأفعال غزار رديـــة
وقد بُدلت أسماؤنا وتحوّلـــت	بأسماء أعلاج من أهل الغيـــاوة
وأهنا على أبنائنا وبناتنـــا	بروحون للباط في كل غـــدوة
يعلمهم كفرًا وزورًا وفريـــة	ولا يقدرون أن يمنعوهم بحيلـــة

ثم يستغيث الشاعر بسلطان الدولة العثمانية، ويعقد آماله عليه:

فها نحن يا مولاي نشكو إليكم	فهذا الذي نلناه من شر فرقة
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا	كما عاهدونا قبل نقض العزيمة

إلا أن كل ذلك لم يؤثر في السلطان بايزيد، ولم يُحرّك فيه نخوة تحتضنهم وتنقذهم، لقد ضاعت الأندلس بسبب إهمال العثمانيين وتفضيلهم مصالحهم الضيقة على مصالح المسلمين، وهذا ليس توهمًا، فقد كانوا الدولة الأقوى حينها، ولذلك النجدة إليهم عبر الأندلس الذين لم يجدوا الأخوة التي توقّعوها ولا النجدة التي تمنّوها.

المراجع:

1- أحمد التلمساني، زهار الرياض في أخبار عياض، رسالة محفوظة في المكتبة الوطنية في الجزائر.

2- إلهام يوسف، "النشاط العسكري في الدولة العثمانية في عهد السمطان بايزيد الثاني 886-918هـ/1481-1512م"، مجلة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، مج 39، ع 3 (2017).

3- بسام البطوش، "موقف الدولة العثمانية من استغاثات الأندلسيين – الموريسكيين – ما بين سنتي 1451-1616م"، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية، مج 14، ع 1 (2014).